

« النيل »

تعيد مجدنا البحرى

لكاتب كبير

وحل بهم الضيق تحت أسوار المدينة المحصورة ، حشدت سفن المدد فى الاسكندرية ، وسيرها البحارة المصريون الى مياه المرمرة . وكان للسفن المصرية والبحارة المصريين دائماً أكبر نصيب فى الفتوحات البحرية التى كانت تسير الى ثغور الدولة البيزنطية وجزائر بحر ليجه . وظهرت براعة المصريين البحرية فى عشرات المارك أثناء الحروب والحملات الصليبية التى كانت تهبط دائماً على الشواطئ المصرية ، فى الاسكندرية ودمياط ، ثم فى يافا وعسقلان وعكا ، وقد كانت يومئذ ثغوراً مصرية . وتاريخ مصر الاسلامية حافل بهذه الصفحات المجيدة من تاريخنا البحرى .

أما عن الملاحة التجارية فقد كانت مصر الى جانب البندقية تتبوأ مركز الزعامة والسيادة فى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت البندقية تسيطر على الطرق الشمالية والشرقية الى ثغور المرمرة والبحر الاسود ، بينما كانت مصر تسيطر على الطرق الجنوبية والجنوبية الشرقية ؛ وكانت العلاقات بين الثغور المصرية ، والثغور الايطالية ولاسيا البندقية وبارى ونابل وجنوه فى منتهى الانتظام ، وكانت الماهدرات التجارية والبحرية تعقد بين مصر والدول الايطالية فى كل العصور والدول . ولم تفقد مصر أهميتها البحرية والتجارية إلا بعد اكتشاف طريق الهند فى أواخر القرن الخامس عشر ، ثم الفتح العثمانى الذى انتهى بالقضاء على جميع قواها ومواردها وحضارتها الزاهرة .

وفى عصر محمد على استعادت مصر شيئاً من نشاطها البحرى ، فأشقى الأسطول المصرى ، واستأنف البحارة المصريون جهادهم الجيد فى المياه اليونانية . ولكن أوروبا النصرانية لم تشأ أن تعود مصر الاسلامية فتساقط بقسط فى السيادة البحرية فى شرق البحر الأبيض ، فانتحرت بالأسطول المصرى خطره فى « نافارين » ؛ وكان محمد على أكثر عناية بإنشاء السفن الحربية ، فلم تتقدم الملاحة التجارية يومئذ تقدماً يذكر . وكان القضاء على الأسطول المصرى فى نافارين خاتمة عصر قصير من الاحياء البحرى .

وهاهى ذى مصر تستأنف اليوم بعد مائة عام أخرى ، نشاطها البحرى ؛ وتعود البواخر المصرية ، فتشقى لجة البحر الأبيض حيثة وذهاباً . والفضل فى ذلك يرجع الى نشاط ذلك الصرح القوى العزيز — بنك مصر — ؛ وهاهى « النيل » تعود فتحمل علم مصر

بعد أيام قلائل — فى يوم الجمعة ١٥ يونيه — تسير الباخرة المصرية « النيل » من ثغر الاسكندرية الى نابل (نابولى) ثم الى مرسيليا . وهذه الرحلة الأولى لباخرة مصرية كبيرة فى عباب البحر الأبيض المتوسط ، يجب أن تثير فى نفوسنا كثيراً من الذكريات المجيدة . ذلك أن « النيل » تصل بهذا الفتح البحرى الميمون ما انقطع من عصور السيادة البحرية المصرية فى لجة هذا البحر الخالد ؛ فمنذ قرون بيده كانت مصر تتبوأ فى التجارة البحرية ، كما تتبوأ فى القوى البحرية مركزاً ممتازاً ، وكانت السفن المصرية تردد بين الاسكندرية ودمياط وبين ثغور الشرق حتى قاصية البحر الأسود ، والثغور الايطالية ، ثم ثغور الغرب والأندلس فى الطرف الأخير من البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تساهم بأعظم قسط فى النقل البحرى ما بين أوروبا والشرق ، وتزعم بثغورها معظم تجارة الشرق الأقصى . وكانت بين الاسكندرية وقسطنطينية ، وبينها وبين البندقية وجنوة خطوط بحرية منتظمة ، والسفن المصرية تقطع لجة هذه المياه ذهاباً وإياباً ، وعلم مصر الاسلامية دائم الخلق فى هذا العباب

ولقد تبوأَت مصر الاسلامية مركزاً ممتازاً فى السيادة البحرية منذ القرن الأول للهجرة ؛ وكانت السفن المصرية والبحارة المصريون عماد الفتوحات الاسلامية البحرية الأولى فى شرق البحر الأبيض : فى رودس وقبرس واقرطش ؛ وكان العرب قبل فتح مصر يخشون البحر وأهواله ، فلما فتحوا مصر ، وأدركوا أهمية مركزها البحرى ، اتخذوا من الاسكندرية قاعدة لحشد الأساطيل ، والفتوحات البحرية ؛ وكان لبحارة الاسكندرية شهرة خاصة ؛ وكانت تدرب بينهم خيرة الضباط والجنود البحريين . ولما سار العرب لحصار قسطنطينية للمرة الرابعة سنة ٩٩٩ هـ (٧١٧ م) ،